دعاء الجهيني
باحثة في العلوم السياسية

اللعبة الكبرى:
التغير في الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط

تعتبر منطقة الشرق الأوسط من المناطق التي تجد اهتماماً كبيراً من قبل قطاع كبير من الباحثين، بالإضافة إلى أن المنطقة تشغل حيزاً واضحاً في دوريات أكاديمية أجنبية مختلفة. فقد تعاقبت في الفترة الأخيرة جملة من الأحداث المهمة في المنطقة، استوجبت من الأكاديميين ضرورة التدقيق في تداعياتها وانعكاساتها، في محاولة لتحليل وتقديم تفسيرات لها ومحاولة استشراف مستقبلها.

وفي هذا السياق تأتي مساعي هذا التقرير نحو عرض أبرز الاتجاهات السائدة في عدد من الدوريات ومراكز الأبحاث الأجنبية لشهري يوليو وأغسطس 2014، وذلك على النحو التالي:

1- قواعد جديدة وأطراف آخرون

في دراسة حديثة له، وصف الباحث الأمريكي "كوردسمان" أحداث الشرق الأوسط بأنها "اللعبة الكبرى"[1](Great Game)، ليعبر بهذا المصطلح عن حالة التغير المستمر في ساحة "اللعبة الشرق أوسطية" حيث يدخل لاعبون جدد إليها: اليمن والقرن الأفريقي وتنظيم "داعش"، بالإضافة إلى قضايا الاستقرار في مصر ومنطقة البحر الأحمر والأردن، وتنامي جهود روسيا لتوسيع نفوذها في منطقة شمال أفريقيا.

هذه المتغيرات جميعها تؤثر على سير "اللعبة"، إضافة إلى وجود عوامل وقوى من نوع آخر تساهم في إعادة تشكيل خريطة الشرق الأوسط، وتُغير "اللعبة"، ومنها على سبيل المثال المشكلات الداخلية والسياسية والاقتصادية والديمغرافية في دول المنطقة بتنويعاتها المختلفة، فمنها مشكلات قطاع الصحة والتعليم والكثافة السكانية والبطالة، فضلاً عن الضعف العام الذي يسم أداء عدد من حكومات المنطقة في التعامل مع هذه المشكلات الملحة. وتظل قضية البطالة من أكثر الملفات خطورة، حيث تعتبر المحفز الرئيسي لانخراط شريحة من شباب المنطقة في صفوف المقاتلين. من جانب آخر يمكن إضافة عدد من العوامل الأخرى المؤثرة، كالإرهاب وحركات التمرد ومشكلات الحكم الرشيد والإدارة والتنمية، وجميعها تساهم بقوة في إعادة تغيير ملامح الخريطة الاستراتيجية الشرق أوسطية.

2- الطائفية المتجددة وعودة الجهاديين

أظهر النصف الأول من عام 2014 جملة من التطورات، من أهمها تجدد الصراعات الطائفية التي أوجدت حالة من الاضطرابات، والتي من المحتمل أن تحمل انعكاسات على المديين القصير والبعيد، وذلك وفقاً لما أوجزه "باتريك كوكبيرن" في متن كتابه حول "عودة الجهاديين: تنظيم الدولة الإسلامية والانتفاضة السنية الجديدة"[2]، فقد مثّل الاجتياح الداعشي مؤخراً في الأراضي السورية والعراقية خطراً قائماً وتهديداً واضحاً، ليس لسوريا والعراق وحدهما، ولكن لمنطقة الشرق الأوسط بأكملها، وهو الأمر الذي أكد عليه "كوردسمان" في دراسته التي سبقت الإشارة إليها أيضاً.

وبالنظر إلى الأوضاع الأكثر اضطراباً في العراق، يعتبر تنظيم داعش المتصدر الرئيسي لساحة الصراع الطائفي المتفجر في العراق، ولقد ألقى هذا الصراع بانعكاساته الجيوسياسية على مصالح الأطراف الإقليمية والدولية، وعلى المستويات السياسية

والاقتصادية والأمنية كافة، خاصة أن مشكلات العراق وسوريا سوف تتداخل مع المشكلات الداخلية للدول المجاورة. وعلى الرغم من اختلاف المصالح الاستراتيجية لهذه الأطراف، وسعي كل طرف إلى تغليب اعتبارات المصلحة الخاصة به، فإن معظم هذه الأطراف تجتمع على هدف واحد في هذه اللحظة الآنية، ويتمثل في القضاء على تنظيم داعش والحيلولة دون تمدده.

ويؤكد "كوكبيرن" في الإطار ذاته على دور داعش في اختلال ميزان القوى في العراق، في ظل الاستغلال الكردستاني الأزمة المشتعلة، وسعيه نحو توسيع حدوده وتأمين أراضيه، والأهم من ذلك هو تأثيره فيما يتعلق بتنظيم القاعدة، فهناك إمكانية أن يدخل الطرفان مستقبلاً في جولة تنافسية جديدة لكسب نقاط أكبر على "لوحة الشطرنج الشرق أوسطية"، وهو الأمر الذي أجمع عليه كل من "كوردسمان" و"كوكبيرن". ومن هنا، فإن تفاقم حدة الانقسامات واتساع نطاق الصراعات الطائفية في منطقة الشرق الأوسط يساهمان بشكل بالغ في زيادة حدة حالة عدم الاستقرار في المنطقة، والذي يتسم بالتعقيد، ومن شأن هذه الانقسامات أن تدخل المنطقة في عصر جديد مظلم على حد تعبير "باتريك كوكبيرن".

3- التعدد الطائفي وتنوع الهويات .. أحدث الأسلحة

أضافت الصراعات الطائفية الحالية في منطقة الشرق الأوسط خصائص جديدة إلى مفهوم الحروب، فقد أدخلت سمات وخصائص جديدة تختلف عن الحروب التقليدية المتعارف عليها، فيؤكد "جون إلترمان" في دراسته حول "الشرق الأوسط: النسيج الممزق"[3] أن التعدد الطائفي والمذهبي في الشرق الأوسط، بمنزلة أسلحة جديدة في الحروب الحالية، تستخدمها الحكومات الاستبدادية والأطراف صاحبة المصالح في تحقيق مآربها الخاصة. فقد كانت القوى الاستعمارية قديماً تستخدم الانقسامات وسيلة لزعزعة الاستقرار في الأقاليم التي تحتلها. وحسب ما يذهب إليه "إلترمان"، فإن إشاعة الفرقة والانقسام أسهل بكثير من القضاء عليهما، وهما السلاح الجديد الذي تستخدمه بعض الحكومات وعدد من الأطراف من الفاعلين من غير الدول في المنطقة لتحقيق أغراض سياسية، واستغلال المدنيين دروعاً بشرية باسم الهوية من أجل تحقيق طموحاتهم الخاصة. هذه الأسلحة الجديدة هي بديل للقوة العسكرية، وفق ما أقره "كوردسمان" في دراسته حول "الثورة الحقيقة في الشؤون الحربية"[4]، ويتضح هذا الاتجاه في كل من المثالين العراقي والسوري، حيث أطلق الرئيس السوري بشار الأسد عنان الحرب الأهلية، وتسخير رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي الانقسامات الطائفية لصالح مصالحه الخاصة.

من جانب آخر باتت المنطقة تتصف بسمة التحول من نمط الصراعات المدنية الرامية إلى التغيير إلى نمط الصراعات الدينية، وذلك وفق ما أقره "بايري روبن" في دراسته المعنونة "رؤية تأملية للشرق الأوسط"[5]، ويؤكد أن الطائفية هي التي تسود حالياً ساحة الصراعات ما ينذر بقدوم خطر مستقبلي.

4- علاقة طردية بين مستويات الصراع وهشاشة الدول

على خلفية التوترات والصراعات التي تنتشر في خريطة الشرق الأوسط الحالية، والتي تتعدد بين الطائفية والصراعات الداخلية وتمرد جماعات ضد بعضها البعض، فإن ثمة علاقة بين نمط الصراع وشدته من جانب، والدرجة التي تمكن بها من إضعاف وخلخلة النظم في المنطقة من جانب آخر. ويقدم "مارتن جيم" في متن تقرير حول "الضعف في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا" عرضاً مطولاً حول درجة الهشاشة التي باتت تتسم بها دول الشرق الأوسط وفقاً لمستويات الصراعات وأنماطها.

ويظهر التقرير الدول التي أصيبت بحالة واضحة من الضعف نتيجة الصراعات الطائفية والدينية، وما تركته الحروب الأهلية من آثار على قوة هذه النظم، كما في العراق وسوريا ولبنان واليمن وليبيا. وثمة دول أخرى تقل فيها درجة الهشاشة والضعف ومنها مصر وتونس؛ نظراً لوجود فرص حقيقية للتغيير والتحول الديمقراطي، وهذه الخاصية تميزها عن نظيراتها من الدول الأخرى التي تصل بها درجة الصراعات إلى أقصى ما يكون.

على الرغم من أن سوريا قد استطاعت مراوغة "الثورات العربية" بشكل منحها حصانة من انهيار النظام، فإنه لا يزال النظام الأكثر دموية وتقلباً في الأوضاع على خريطة الصراعات الشرق أوسطية، وفقاً لما قدمه "سامسون فيبون" في دراسته "تقدم داعش: خط أحمر جديد في الشرق الأوسط"[7].

5- إحباط مشروع الهلال الشيعي في المنطقة:

يرد في هذا المقام، مدى التأثير الذي ألحقه تمدد تنظيم داعش بمشروع الهلال الشيعي الإيراني (من إيران إلى لبنان)، فقد أظهر

التوغل الأخير لداعش ضعف القدرة الإيرانية على بسط نفوذها في المنطقة، وأن قيام مشروع الهلال الشيعي لا يقع في نطاق التحقق، ويؤكد "كوردسمان" في دراسته حول "لعبة الشرق الأوسط" أن إيران غفلت عن خصائص الدول التي تقع في نطاق الهلال الشيعي المأمول من جانبها، فالفوضى عارمة بسبب اللاجئين السوريين إلى لبنان، وتزايد الفصيل السني المتطرف في الشمال، وهناك تركيبة مختلفة من الطوائف الدينية في كل من العراق وسوريا لكل منها خصائصها المحددة فيما يتعلق بالدين واللغة والعرق. ولعل هذه الخصائص والاختلافات تجيب وبقوة على السؤال المطروح، لماذا تتغير الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط؟ كما أن جملة هذه الخصائص من شأنها تحجيم إيران عن استكمال

مشروعها نحو إقامة الهلال الشيعي في المنطقة.

6- عودة الدور الروسي وتفوقه على نظيره الأمريكي

يمكن القول إن الداخل الشرق أوسطي يتأثر ويؤثر في الخارج الدولي، تماماً كما حدث في أعقاب الأزمة الأوكرانية التي أكسبت روسيا مزيداً من المصداقية، ومزيداً من التفاعلية في قضايا المنطقة. فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحت مجهر الفحص الروسي من حيث تقييم جهودها وسياساتها الخارجية تجاه الشرق الأوسط، وأظهرت روسيا بوضوح فشل الجهود الأمريكية في إقامة حكومة وطنية عراقية، وانعدام سعيها الجاد نحو اتخاذ إجراءات لمنع توسع داعش. وقد حققت روسيا الهدف الأول في هذه المباراة بعد توجيهها اتهاماً للولايات المتحدة بتجنيدها وكلاء وشركاء ليكونوا بديلاً عن القوة العسكرية، فضلاً عن اتهامها بفشل استراتيجياتها في متابعة الصراعات الداخلية في الشرق الأوسط، وأنها سبب رئيسي في زعزعة الاستقرار في المنطقة.

كل ذلك كان من شأنه إثارة القلق لدى حلفاء الولايات المتحدة، وبالتالي لعبت روسيا على وتر علاقات الولايات المتحدة بحلفائها، وأنها أصبحت حليفاً غير جدير بالثقة. ويؤكد "إيلان بيرمان" في مقاله "هل ستعود الحرب العظمى مرة ثانية؟"[8] على أن الإدارة الأمريكية تخلت عن دور المراقب العالمي الذي كُلفت به في أعقاب الحرب العالمية الثانية. أما "جيم إيكمان"[9]الأستاذ في جامعة جريس فيشير في مقالته إلى أزمة السياسة الخارجية الأمريكية تجاه قضايا الشرق الأوسط، وما تعانيه من تحول، خاصة بعد رفضها دعم المتمردين المعتدلين في سوريا. ويضيف "ناثان براون" في دراسته حول "تأثير الصراع مع إسرائيل على القيادة الفلسطينية"[10]، أن هذا الضعف والتحول في الدور الأمريكي ظهر أيضاً في مسألة الصراع الأخير بين حماس وإسرائيل، وعلى العكس من تدني الدور الأمريكي، يظهر النفوذ الروسي الأكثر نشاطاً في التقارب بينها وبين دمشق والقاهرة.

7- عودة الدبلوماسية المصرية وأفول الدور القطري

على أثر ما أحدثه النزاع الأخير بين حماس وإسرائيل وعودة حماس إلى المقاومة مجدداً، يبقى المجال مفتوحاً أمام مصر في سعيها نحو استعادة دورها الإقليمي في المنطقة، وفق ما أكدته "ميتشيل دن" في دراستها حول "الآثار الجيوسياسية للصراع في غزة"[11]، في ظل غياب الدور القطري خاصة، بعدما كان متصدراً مشهد الوسيط في أعقاب "الثورات العربية". ويمكن القول إن هذه الفرصة تُقدم لمصر فرصة سانحة لإمكانية عودتها إلى لعب دور مهم على الساحة الإقليمية مرة أخرى، خاصة أن قطر سيظل دورها ثانوياً في إقناع حماس، وأن هذا التراجع يعزى إلى الضغط السعودي في ظل التقارب الملحوظ بين الرياض والقاهرة.

وعلى الجانب الغربي، فإن الترحيب بعودة مصر إلى التفاعل الإقليمي متوقعاً، خاصة في ظل وجود كرسي "الوسيط" الشاغر وتراجع الدور القطري. وربما تعكس عودة "الوجاهة الدبلوماسية" لمصر آثاراً إيجابية على المدى البعيد، تتمثل في قدرة مصر على السيطرة على حدودها مع غزة ومنح مزيد من الشرعية لإجراءاتها ضد الحركات الإسلامية، فضلاً عن إمكانية مشاركة مصر في صياغة اتفاقات مستقبلية حول سوريا والعراق، وهذا يعني الدفع بالدور المصري نحو تصدر الأداء الإقليمي وإعادة تعريف وبلورة الدور السعودي مجدداً في مقابل تحجيم الدور القطري.

8- عودة إلى أوضاع ما قبل الحرب العالمية الأولى

يرصد " إلترمان" في دراسته التي سبقت الإشارة إليها رؤى عدد من النقاد والباحثين حول أوضاع الشرق الأوسط الحالية، ويصفها بأنها عودة إلى أوضاع ما قبل الحرب العالمية الأولى، وأن حدود الشرق الأوسط الحالية قد تجاوزت مدة صلاحيتها، ولم تعد تتطابق مع النعرات الطائفية وخطوط الصدع الاثنية. ويقدم "إلترمان" دحضاً واضحاً لمضمون هذه الرؤى، مؤكداً أن ما ساقه هؤلاء الباحثون يفيد في تفسير أسباب تردي الأوضاع في الشرق الأوسط على أثر الصراعات الطائفية، لكنها في الوقت ذاته غير مجدية لتجاهلها الكيفية التي تستغل بها الحكومات والمعارضة الورقة الطائفية كحل قصير المدى للمشكلات السياسية.

ومن جانبه يؤكد "بيرمان" أن النظام الدولي يشهد حالياً أوضاعاً شبيهة ومماثلة لفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، ومنها: الفوضى المستمرة في روسيا وأوكرانيا، وغياب الهيمنة المحايدة على مدى السنوات الست الماضية نتيجة تخلي الولايات المتحدة بشكل منهجي عن دور المراقب، فضلاً عن معاناة السياسة الخارجية الأمريكية حالة من "التشنج" وسحب قدراتها العسكرية. ويرى "بيرمان" أن ذلك كله بمنزلة علامات وأعراض في "العمق والصميم" تؤكد أن ثمة خطراً مستقبلياً قادماً. وإذا كانت الشرارة الأولى التي أطلقها "غافريلو برينسيب" عند اغتياله "الأرشيدوق النمساوي فرديناند" وزوجته صوفي كانت سبباً في تأجج نار الحرب العالمية الأولى، فإنه وفي الوقت الحالي يبدو أن هناك شرارات قد تساعد على إعادة تأجيج هذه النار مرة ثانية.

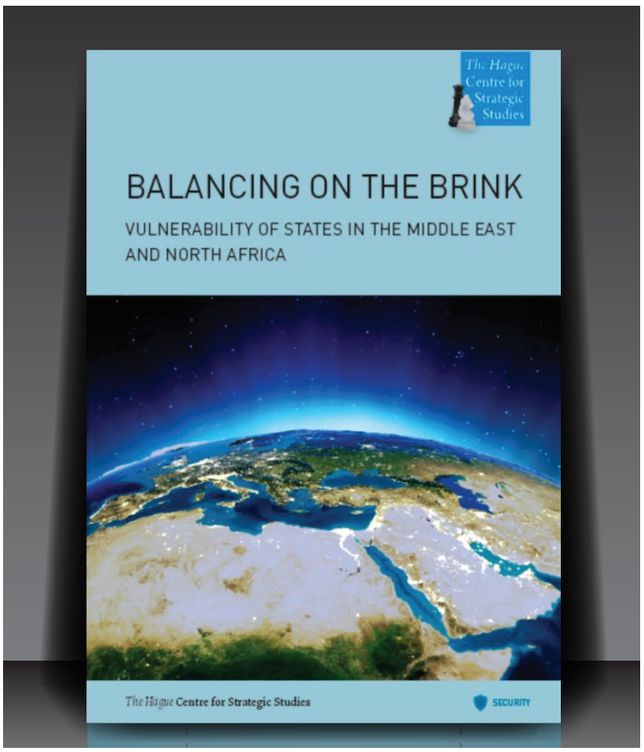

9- تجدد الحرب الباردة في منطقة الشرق الأوسط

يبدو أن حرباً باردة جديدة تتجدد في النظام العالمي على ساحة الشرق الأوسط، فبالنظر إلى القوتين الروسية والأمريكية، يتضح مدى اتساع نطاق التنافس بينهما على النفوذ الإقليمي. وترصد روسيا تفاعلات القوة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط حيال المستجدات الطارئة في كل من العراق وسوريا وغزة، لتلقي بوابل من الاتهامات على الولايات المتحدة، وتوجه لها اتهامات بأنها السبب في زعزعة الاستقرار في المنطقة، وأن دورها الخارجي يعاني قصوراً واضحاً. في المقابل تقوم روسيا بدعم حكومة العراق بطائرات للقضاء على تنظيم داعش، وهو ما يعني عزم روسيا على استخدام قوتها من دون تعزيز لاستراتيجية إقليمية روسية وفق ما أكده "أنتوني كوردسمان" في دراسته حول "اللعبة الكبرى للشرق الأوسط". من جانبه يتوقع "بيرمان" إمكانية حدوث حرب باردة بين روسيا والغرب على أثر الأزمة الأوكرانية. ويختلف "ديمرتي ترينن" في دراسته حول "استئناف التنافس بين القوتين"[12] مع رؤية "بيرمان" و"كوردسمان" حول احتمالية قيام حرب باردة جديدة، مقراً بأن مؤشرات الفترة الحالية تختلف تماماً عما كانت عليه في فترة الحرب الباردة، خاصة ما يتعلق بغياب البعد الأيديولوجي في الصراع، على الرغم من وجود البعد العسكري، لكن ليس بشكل مؤثر كما في سابق مرحلة الحرب الباردة.

10- مستقبل السلام في فلسطين .. معوقات أكثر منها فرص

يصف "يوري أفنري" في دراسته حول "عملية السلام المتأخرة: ماذا بعد؟"[13] مفاوضات السلام بين إسرائيل وفلسطين طيلة الأشهر التسعة الماضية بأنها (الحمل الكاذب)، وأن إهمال الولايات المتحدة لقضية السلام في الشرق الأوسط سوف يؤدي إلى استمرار إسرائيل في بناء مستوطنات جديدة على الأراضي في الضفة الغربية دون تدخل أجنبي؛ مما سيجعل الحياة قاسية أكثر من أي وقت مضى، وعلى الجانب الآخر يظهر ملمح البطء والمماطلة في عمليات المصالحة بين حماس وفتح.

ويؤكد تقرير في مجلة الإيكونيميست بعنوان "كسب المعركة .. وخسارة حرب"[14] أن إسرائيل لا تريد السلام من خلال التفاوض، وأنها تسعى سعياً حثيثاً نحو ترسيخ وجودها في فلسطين. ويدلل التقرير على ذلك بما جاء على لسان رئيس الوزراء الإسرائيلي الحالي بنيامين نتانياهو، والذي يشرط أي اتفاق سلام محتمل ببند ضم السيطرة العسكرية في الضفة الغربية، وترسي إسرائيل صورتها بأنها تدافع عن نفسها.

في إطار ما تمت تغطيته حول اتجاهات الشرق الأوسط، وبعد الخوض في غمار آراء الباحثين لتطورات الشرق الأوسط، يمكن القول إن معظم الدراسات التي تطرقت لتحليل قضايا المنطقة قد التزمت البعد السياسي في قراءة الأوضاع السياسية الداخلية لدول المنطقة، ودرجة التأثير والتأثر بين المنطقة والفاعلين الدوليين، وعلى الرغم من براعة الباحثين في تسليطهم الضوء على تحليل الأوضاع السياسية الشرق أوسطية الحالية، فإن ثمة ما يلفت النظر في متن الأفكار التي تعرضت لها هذه الدراسات، من ضعف الاهتمام بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لدول المنطقة، وقد تعرض "كوردسمان" في دراسته حول "اللعبة الكبرى في الشرق الأوسط" لفكرة الأوضاع الاقتصادية بشكل مختصر، لكنه لم يعرضها بقدر من الإسهاب لتوضيح الدور المؤثر لمجمل هذه القضايا في قدرتها على إحداث تغيير في بيئة الشرق الأوسط.

وعلى الجانب الآخر من ساحة التفاعلات الدولية في المنطقة، فقد أغفلت الدراسات الحديثة محوراً مهماً يتمثل في صعود الصين كقوة بارزة، في ظل نشاطها الملحوظ الرامي إلى توسيع مصالحها الاقتصادية والتجارية في منطقة الخليج، وهو أمر يستدعي ضرورة ربط الدور الصيني وتأثيره وتأثره بمجريات الأحداث في المباراة الاستراتيجية في الشرق الأوسط، خاصة أن التوقعات حيال هذا الموضوع تصب جميعها في احتمالية الصعود الصيني مستقبلاً وإزاحته القوة الأمريكية من على عرش القطبية الواحدة.

1) Anthony H. Cordesman , **The New Great Game In The Middle East : Looking Beyond The Islamic State and Iraq** , Washington, CSIS, Aug 2014 .
2) Patrick Cockburn, **The Jihadist Return: ISIS and The New Sunni Uprising**, OR Books, 2014 .
3) Jon B. Alterman, **The Middle East Unstitched**, Washington: CSIS, Middle East Notes and Comment, August 6, 2014
4) Anthony H. Cordesman, **The Real Revolution In Military Affairs**, Washington, CSIS, Aug 2014
5) Barry Rubin **The Logic Of Middle East**, GLORIA, Aug 2014 .
6) Maarten Gehem, Philipp Marten & Matthijs Maas, **Balancing On The Brink: Vulnerability Of States In The Middle East And North Africa**, CSIS, Aug 2014
7) Samson Faboye, **The Advance Of ISIS: Implications Of A New Redline In The Middle East**, IWB, July 2014
8) Illan Berman, The Great War Again: Today's Global Tensions Echo The Lead Up To World War I, Could This Be The End Of Our World Order?, World Report, July 2014
9) Jim Eckman, **A Foreign Policy Crisis In America: Russia, The Middle East And The Obama Administration**, Issue In Perspective, Aug 2014
10) Nathan J. Brown, **What The Gaza War Means For The Middle East ?**, Carnegie Endowment For International Peace, July 2014
11) Michele Dunne, **What Are The Implications Of The Turmoil In Gaza For Egypt ?**, Carnegie Endowment For International Peace , July 2014
12) Dmitry Trenin, **The Ukraine Crisis And The Resumption Of Great Power Rivalry**, Russian International Affairs Council RIAC , July 2014
13) Uri Avnery, **The Late Unlamented Peace Process: What Comes Next?,** Washington Report On Middle East Affairs, Aug 2014
14) **Winning The Battle, Losing The War: For Its Military Might, Israel Faces A Grim Future Unless It Can Secure Peace**, Economist, Aug 2014